إشكالية اللفظ و المعنى
عند اللغويـــيـن العرب القدامى

جلاب صليحة : أستاذ محاضر ب
جـــامعة يحي فارس – المدية

الملخص

اللغة هي ماهية الإنسان وأداة تعبر عن تأثراته وانفعالاته، وتساعده أيضا على التواصل مع الآخرين. ولما كانت الوحدة اللغوية مكونة من لفظ ومعنى، ذلك أنّ الإنسان يعيش في محيط ما، وهذا المحيط يحتوي على موجودات وأشياء يعقلها الإنسان وينقلها إلى ذهنه وهي ما يعرف بالمعاني، لكنّه لا يكتفي بحفظها فحسب بل يسعى إلى أن يضع لها أسماء تشير إليها وتدل عليها.

من هنا كانت طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى، من بين أهم المواضيع اللغوية التي تطرّق إليها العديد من اللغويين العرب في اختلاف الرؤى بينهم، إذ نجد "سيبويه" يقول بتعددية الألفاظ والمعاني، في حين يذهب "الجاحظ" إلى أنّ تحقق البلاغة يكون بجودة المعنى واللفظ معا. أمّا "ابن قتيبة" فقد ذهب إلى أنّ اللفظ يحسن بحسن معناه والعكس صحيح.

الكلمات المفتاحية: اللغة، النص، اللفظ، المعنى، الاشتراك، الترادف، الدلالة.

Summary

Language is the human heart and a tool that expresses its affections and emotions, and also helps to communicate with others. Because the language unit is full of diction and meaning, man lives in an environment, and this ocean contains assets and things that are followed by man and transferred to his mind, which is known as meaning, but he not only preserves them but seeks to put names to indicate them.

meaning, among the most important linguistic topics addressed by many Arab linguists in the different visions between them.

As Sibawah says to the pluralism of words and meanings, while Aldjahid goes to achieve rhetoric is the quality of meaning

and speech together. Where IbnQuatyba has gone to the word improves the good meaning and vice versa.

Keywords
Language, text, pronunciation, meaning, participation, synonym, meaning.

مقدمة

التراث العربي حافل بالدراسات اللغوية التي أتت نتيجة مخاض فكري أنتجه زمرة من علمائنا وفقهائنا، ومسألة اللفظ والمعنى واحدة من أهم القضايا التي شغلت الدارسين لما لها من ارتباط بكثير من العلوم والمجالات الإنسانية، فقد «هيمنت على تفكير اللغويين والنحاة وشغلت الفقهاء والمتكلمين، واستأثرت باهتمام البلاغيين والمشتغلين بالنقد، نقد الشعر والنثر، دع عنك المفسرين والشراح الذين تشكل العلاقة بين اللفظ والمعنى موضوع اهتمامهم العلني الصريح». [1]

نلحظ مدى أهمية دراسة اللفظ والمعنى لدى مختلف العلوم والمجالات، فبهما تتحدد وتحل الكثير من القضايا سواء في علم الأصول أو التفسير أو البلاغة وغيرهم.

نظرا لطبيعة هذا الموضوع – اللفظ والمعنى عند المفكرين العرب– الخصب والرحب الذي لا يسعنا أن نوجزه في بضع ورقات، إلاّ أننا حاولنا ما يمكن إيجازه وسلطنا الضوء على بعض النقاط التي رأيناها جوهرية، ممهدين لهذه المسألة بصاحب كتاب "الرسالة" الإمام "الشافعي" (150ه-204ه) الذي تحدث في مسائل عدة، وخاض فيها بالدرس والتحليل حتى عدّ واضع الأبواب الأولى لعلم أصول الفقه، ومن جملة ما تحدث فيه إشارته إلى معنى اللفظ السياقي عند العرب في كلامها، «وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله». [2]

من مقولة "الشافعي" يتراءى لنا البعد المعرفي وأسبقية المفكرين العرب في الوصول إلى استنباطات معرفية لما يصل إليها المفكرون الغربيون إلا مؤخرا، مع مارتيني، أولمان، ستيفن وفيرث.

وإذا ما انتقلنا إلى سيبويه(ت180ه) فنجد له استنتاجات في هذه المسألة –اللفظ والمعنى– ومما أورده في هذا الباب قوله: «إنّ كلامهم (العرب) اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين، والمعنى واحد، واتفاق اللفظين، واختلاف المعنيين» [3].

إنّ هذا الكلام يمكن أن يدرج في إشكالية، هل لكلّ معنى لفظ واحد؟ وهل يجوز تعدّد اللفظ والمعنى واحد؟ وهي مسألة ناقشها الباحثون في باب الترادف

والاشتراك غير أنّ "سيبويه" قد يكون رمى من وراء قول هذا إلى لا نهائية الكلام العربي، وهو ما ذهب إليه "قطرب" حين قال: «إنّما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد، ليدلوا على اتساعهم في كلامهم».[4]

وإذا كان "الشافعي" قد فتح أبواب علم أصول الفقه، فإنّ الجاحظ (160ه-255ه)، هو أول من ولج أبواب علم البلاغة، والجمال، وفتح مكامن البيان، ومن بين استنتاجاته وتحديداته، وضعه لمصطلح "البيان" الذي هو «إدراك الحقيقة والمعرفة عن طريق الحدس والذوق وميدانه الطبيعي هو ميدان ما بعد اللغة حيث تسود الإشارة والتلميح.»[5]

والجاحظ هاهنا يدعو إلى قراءة معنى المعنى، واكتشاف المعنى الخفي، كما يرى أنّ الألفاظ ما هي إلا نتيجة منطقية للمعاني، فهي حوصلة للتصور الذهني، وفي هذا يقول: «وإنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها.»[6]

فـ"الجاحظ" ينظر إلى اللفظ على أنّه مقاطع صوتية، يقول: «الصوت وهو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف... ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف[7]، فلا أهمية للحروف بدون تأليف وتنسيق؛ لأنّها تبقى مجرد حروف، بل إن فائدتها في التأليف حتى تصير كلاما موزونا ذا معنى.

كما أنّ البيان في نظر "الجاحظ" هو إجلاء المتكلم للحقيقة، وبعده عن التلميح، وقد وضّح ذلك في حوار جرى بين تمامة وجعفر بن يحيى: «قال تمامة لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ولا يستعين عليه بالفكرة والذي لا بدّ منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا عن الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل».[8]

فهذا القول يدعو إلى أن يكون اللفظ صريحا مفهوما لا يحتاج إلى غوص أو تفسير أو شرح، لكن هذا الطرح قد يسم اللغة بالجمود، واللغة بطبعها غير ثابتة على قاعدة بل هي زئبقية تأبى الجمود وتصاغ وفق صياغة قائلها.

ويورد "الجاحظ" أيضا مبرزا أدوات البيان، وهي: اللفظ، والإشارة، والعقد، ثم الخط، ثم الحال (النصبة)، غير أنّ ما يهمنا في هذا البحث هو اللفظ؛ لأن «الأداة الأولى للبيان هو اللفظ اللغوي»[9]، ذلك أنّ المعاني تبقى حبيسة في الصدور ما لم يجسدها اللفظ ويفصح عنها.

بعد هذه الإطلالة السريعة على الفكر اللغوي الجاحظي، نخرج بقناعة وهي أن

"الجاحظ" قد كان له فضل كبير في إزالة اللبس عن كثير من قضايا اللغة، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة اللفظ والمعنى.

وفي المقابل نجد لابن قتيبة (ت 276ه)هو الآخر دورا بارزا في خوض غمار مسألة اللفظ والمعنى، واستنباط جملة من النتائج، فهو يوازن بين اللفظ والمعنى، وقد أوضح رأيه في كتابه (الشعر والشعراء)، «فلديه أن الشعر يمكن أن يوزع على أربعة أضرب، وكل من هذه الضروب فيها ركنان اللفظ والمعنى، وبحسب صفات الجودة أو الرداءة لهذين العنصرين يعطى الكلام مرتبته، فثمة [1] ضرب بين لفظه وجاد معناه، [5] ضرب حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، [3] ضرب جاد معناه، وقصرت ألفاظه، [4] ضرب تأخّر معناه، وتأخر لفظه». [10]

نجد أن "ابن قتيبة" يحكم على شعرية البيت الشعري وفقا لسباكة -صياغة- لفظه ومعناه، فلا بدّ للمعنى أن يكون جيدا حتى يحس لفظه والعكس صحيح، ويزيد على هذا ليؤكد رأيه في قول آخر له: «فما يزيد في حسن الشعر ويمكن له حلاوة في الصور حسن الإنشاد وحلاوة النغمة، وهو أن يكون الشاعر قد عمد إلى معاني شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ فلا يكسو المعاني الجدية ألفاظا هزلية فسيخفها، ولا يكسو المعاني الهزلية ألفاظا جدية فيستوخمها سامعها، ولكن يعطي لكل شيء من ذلك حقه ويضعه موضعه». [11]

الشاعر في نظر "ابن قتيبة" إذا أعطى كلامه بلاغة، أي أنه يجب عليه أن يعطي للفظ الجيد معنى جيدا والعكس صحيح.

كان للفارابي (ت 339ه)تعليقات فيما يخص قضية اللفظ والمعنى، فاهتمامه بعلمي المنطق والفلسفة جعلاه يركز على مسائل اللغة، ومن بين ما أورده في هذا الصدد، تقسيمه للألفاظ باعتبار دلالتها: «بل إنه وضع لها علما خاصا سماه "علم الألفاظ" التي قسمها إلى سبعة أقسام وهي: علم الألفاظ المفردة وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تركب وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين الشعر». [12]

ونلحظ أنّ "الفارابي" قد تعمق في دراسته للفظ، فسنّ له قوانين حتى ينتظم الخطاب، ويتوافق اللفظ مع معناه، فيحصل التبليغ ويحسن التوظيف، وبهذا تكون علاقة اللفظ بمعناه علاقة تواصلية تكاملية.

إذا كان "الفارابي" منطقيا فإنّ المنطق يقرّ بالعقل والاستدلال، ومن ثمّ فالألفاظ

تكون شكلا مؤديا لمضمون ما وهو المعنى، فكأن المعاني تصورات، والألفاظ قوالب مجسدة، مؤدية، مشكلة، محققة لتلك التصورات، وهو في هذا الباب يورد قائلا: «فإذن يصير الشعر أكمل وأفضل بألفاظ ما محدودة إمّا غريبة، وإمّا مشهورة، وبأن تكون المعاني المفهومة عن ألفاظها أمورا تحاكي الأمور التي منها القول، وأن تكون بإيقاع، وأن تكون مقسومة الأجزاء». [13]

إذا كان "الفارابي" منطقي استدلالي فإنّه لا يذكر "ابن جني" (320ه-392ه)إلا وتبادر الدرس اللغوي إلى ذهن السّامع، ذلك أنّه عالم لغوي له باع وصيت في الحقل اللغوي الفكري التراثي العربي.

كما درس "ابن جني" مسألة اللفظ والمعنى في كتابه "الخصائص"، «فعرض ثلاث علائق متصلة هي: العلاقة بين اللفظ والمعنى، والعلاقة بين اللفظ واللفظ، ثم العلاقة بين الحروف ببعضها». [14]

ونلحظ أنّ "ابن جني" أراد الإلمام بجوانب المسألة، من حيث أن يكون للمعنى الواحد أكثر من لفظ، وهذا يدخل في باب الترادف، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وعلّق عبد الجليل منقور على ذلك قائلا: « إنّ مخارج حروف اللفظ التي تقترب من مخارج حروف لفظ آخر، هما متقاربان دلاليا لتقاربهما فونولوجيا وتلك خاصية من خصائص اللغة العربية». [15]

وإنّ هذه الملاحظة تنم وتعكس فكرا عميقا، وبعد نظر اتسم به "ابن جني"، ولتوضيح فكرته أكثر يعرض شرحا «للفظ "أزا" الوارد ذكره في قوله تعالى: (تَأُزُّهُم أَزًّا) [16] أي تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزهم هزا والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنّها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ، لأنّك قد تهزّ ما لا بال له، كالجذع، وساق الشجرة، ونحو ذلك.» [17] نرى أنّ "ابن جني" قد أولى عناية فائقة بالتطبيقات، وذلك للتدليل وتوضيح ما يجيء به من خلاصات ونظريات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اجتهاده، وتمحيصه، وتدقيقه، لما يقول، ويذهب "ابن جني" إلى أنّه قد ترد ألفاظ حسنة مصوغة صياغة جيدة إلا أنّها لا تعكس معان شريفة، حتى أنها تخلو من قصد مرجو، والعيب في نظره، «لا يكمن في الأبيات وخلوها من المضمون والألفاظ ولكنه راجع إلى جفاء طبع الناظر، وخفاء عرض الناطق، أي يحتاج مثل هذا العمل الأدبي وهذه الطريقة في عرض الأحاسيس لدى الشاعر إلى التفاهم وتقصي أسراره». [18]
فاللفظ وكذا المعنى ما هما إلا نتيجة مخاض قائلهما، فإذا كان الشاعر ذا طبع

سيء، وغرض وضيع فلا تنتظر منه أن يكون لفظه جيدا حسنا، وإذا كان ذا نفس أبية، ونية حسنة حسن معناه وجاد لفظه، فالموجب يطرح موجبا والسالب يولد سالبا.

ومما هو معروف أنه قد تتعدد دلالة اللفظ الواحد، وهذا ما أطلق عليه اللغويون مصطلح الحقيقة والمجاز، ومن بين هؤلاء نجد "ابن جني" حاضرا لإبداء رأيه في هذا الموضوع، قائلا في كتابه "الخصائص": «الحقيقة ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز ما كان بضد ذلك، وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة: وهي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدمت الثلاثة تعينت الحقيقة».[19]

وللتدليل أكثر على تعريفه الآنف يورد أمثلة اخترت منها هذا المثال، وهو «وقوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا)[20] هو مجاز، وفيه المعاني الثلاثة: أما السعة فلأنّه كأنّه زاد في اسم الجهات والمحالّ اسمها هو الرّحمة وأمّا التّشبيه، فلأنّه تشبه بالرحمة، وإن لم يصح دخولها، فما يجوز دخوله فلذلك وضعها موضعه، وأما التوكيد، فلأنّه أخبر عن المعنى بما يخبر به عن الذات».[21]

والمجاز يعكس مرونة اللغة العربية وقابليتها للشحن، وبهذا يصبح اللفظ متحررا يلبس دلالات جديدة حسب السياق الذي يرد فيه، فالمجاز هو إضافة معنى جديد إلى المعنى القديم المعجمي الحقيقي الذي تواضع عليه المتكلمين.

وعليه نصل إلى أنّ "ابن جني" قد ألبس اللفظ والمعنى حلّة باهية، مختلفة الزّخارف والحلل، فأكسب المعنى توكيدا، وأخرج اللفظ من نمطيته وجعله يتماشى والسياق، فإذن علاقة اللفظ بالمعنى عند "ابن جني" هي علاقة تواصلية، توكيدية، توسعية، تجديدية، سياقية.

بمجرد ذكر "ابن سينا"(373ه-427ه)حتى يتبادر إلى أذهاننا الجانب النفسي الطبي، وقد انعكس انتماؤه على تحليله اللغوي. وهو ما أفضى على دراسته اللغوية طابع الدّقة والموضوعية، ومن جملة المسائل اللغوية التي تناولها، ولا سيما فيما يتعلق باللفظ والمعنى تقسيمه للّفظ: «يحدد ابن سينا ماهية اللفظ المفرد بالنظر إلى دلالته، فما كانت دلالته واحدة لا تتجزأ فهو اللفظ المفرد، ثم بحيث إذا تجزأت دلالته لم تفصح عنه وإنّما تتحول إلى دال غيره، ومعنى ذلك أن اللفظ المفرد قد يكون لفظا مركبا فقولنا عبد شمس فإنّه وإن جاز فيه أن يجزأ إلى "عبد" و"شمس" ولكن لا تكون دلالته من حيث يراد أن يقال "عبد شمس"».[22]

من خلال هذا التقسيم تبرز مدى دقة وعمق الدراسة لدى "ابن سينا"، فهو يراعي في المقام الأول دلالة اللفظ إذا كان مفردا أو مركبا وذلك في قوله أيضا: «إذا لم يرد باللفظ دلالة لم يكن دالا»[23]، فهو ها هنا يرجع اللفظ إلى مدار القصد والإرادة، وهو المعنى

الذي يريد القائل أن يوصله إلى الغير بواسطة اللفظ.

كما أنّه – ابن سينا – أوضح بطريقة تفصيلية كيفية الكلام، وذلك عن طريق المعنى واللفظ؛ أي بين الصور الذهنية المحفوظة في الذاكرة (المعاني) وبين الألفاظ (دلالة)، يقول: «وعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحسّ على النّفس التفتت إلى معناه.» [24]

هذا النّص يرمي إلى أنّ للإنسان قدرة لغوية، وذاكرة تصورية بحيث وبمجرد أن يسمع الإنسان اسم لمسمى ما، يرتسم في الذهن معناه، أي الصورة زائد الصوت، وبهذا تحفر في الذاكرة وترتبط صورة المسموع بصورة المعنى، فيصبح كل ما ذكر اسم ما إلا وارتبط بمعناه في النفس.

ولم يفت "ابن سينا" مناقشة مسألة تعدد المعنى، إذ يورد في هذا الموضوع قولا: «فإمّا أن يكون لفظا مشتركا وهو الواقع على عدّة معان ليس بعضها أحق به من بعض، كالواقع على ينبوع الماء وعلى آلة البصر والدينار، وإمّا أن يكون لفظا منقولا وهو الواقع على عدّة بمعان عدّة، كلفظة الصوم والصلاة، وإمّا لفظا مستعارا وهو الذي أخذ للشيء من غيره أن ينقل في اللغة فجعل اسما له على الحقيقة وإن كان في الحال يراد به معناه، كقول القائل: إنّ الأرض أمٌّ للبشر». [25]

أمّا فيما يخص العلاقة بين اللفظ والمعنى، فقد تناولنا "ابن سينا" من جوانب ثلاثة، إذ أصدر قائلا: «أصناف دلالة اللفظ على المعنى ثلاثة: دلالة المطابقة ودلالة التضمن ودلالة الالتزام.» [26]، ويشرح هذه الدلالات في قوله: «ودلالة الالتزام مثل دلالة المخلوق على الخلق والأب على الابن والسقف على الحائط والإنسان على الضاحك، وذلك أن يدل أولا دلالة المطابقة على المعنى الذي يدل عليه أولا، ويكون ذلك المعنى يصحبه معنى آخر، فينتقل الذهن أيضا إلى ذلك المعنى الثاني الذي يوافق المعنى الأول ويصحبه، وتشترك دلالة المطابقة ودلالة التضمن في أن كل منهما ليس دلالة على أمر خارج عن الشيء». [27]

ينص "ابن سينا" هاهنا على أنّ للعقل دورا في الربط بين الموجودات، فلفظ"السقف" يلزم بالضرورة وجود حائط، وفي هذا أيضا مطابقة بين اللفظ ومعناه، فذكر لفظ "الإنسان" يلزم شخص بعينه له صفات محددة، من بينها أنّه حيوان ناطق مثلا: أمّا دلالة التضمن فهي تدخل في باب الشراكة المطلقة، من ذلك أنّ الفرس، الثور، والإنسان، من جنس الحيوان، وكذا الأسماء مثل: عمرو، زيد، ومحمّد هم أناس.

يردف "ابن سينا" في علاقة اللفظ بالمعنى قولا، هو: «فما يخرج بالصوت يدل على ما في النفس وهي تسمى آثارا والتي في النّفس تدل على الأمور وهي التي تسمى معاني.» [28]

قبل أن يتكون اللفظ لدى الناطق، يكون موجودا حسيا أو معنويا، فتتحول صورته إلى صورة المحتوى والتي توسم بالمعاني، فيصبح كل ما حضر مسموع الصورة ارتسم في الذهن صورته، وفي هذا الصدد نورد مثلا مشهورا، وهو صورة الشجرة التي تكون عبارة عن أوراق وأغصان وما إلى ذلك فترتسم في الذهن صورة هذا الشكل لتصبح معنى، ويصير كلما ذكر لفظ (الشجرة) ارتسم في الذهن شكلها.

نصل إلى أنّ "ابن سينا" قد قدّم لمسألة اللفظ والمعنى الكثير، وذلك بإزالته الكثير من الغموض عن طريق تقديم إجابات شافية، مرفوقة بأمثلة توضيحية.

في حين اسم "عبد القاهر الجرجاني" (ت 421ه)لا يخفى على دارس اللغة العربية، والمستنبط لمكامنها مهم قل أو ارتفع شأنه، فهو واضع "نظرية النظم" في النقد العربي من خلال كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز". «الذي لم يرد من وراء تأليفه إثبات إعجاز القرآن على سمة المتكلمين والمناطقة وإنّما رام به الكشف عن إعجاز القرآن من زاوية نظرة لسانية وأسلوبية، فتناول ضمنها مباحث تتمحور كلها حول قيمة اللفظ في حالتيه الإفرادية والتركيبية، وعلاقته بالمعنى وما تفرع عنهما من مباحث أخرى». [29]

أبرز "عبد القاهر الجرجاني" كيفية حدوث الحدث الكلامي من خلال طريقة المتكلم للألفاظ أثناء كلامه، يقول: «إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في موقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق». [30]

نلحظ أنّ "عبد القاهر الجرجاني" يعطي الأسبقية للمعاني الموجودة في النفس والألفاظ التالية لها في الواقع الكلامي، فكما أن المعاني هي الأولى في النفس فالألفاظ بدورها الأولى في النطق، فـ"عبد القاهر الجرجاني" يعطي للمعنى قيمة عليا في العملية الكلامية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليغوص فيما وراء المعنى، أي معنى المعنى، وفي ذلك يقول:

«كلّ صوت تمثله المتكلمين بالعربية مثلوا معه المعنى الذي يكمن وراءه». [31]

فالمعنى ليس مجرد تصور ذهني مجرد، بل هو صورة حيوية وعنصر متجدد قابل للتأويل، وهذا يمكن أن يدخل فيما تسميه بالمجاز، وفيما يتعلق بالمجاز فإن "عبد القاهر الجرجاني" يعرفه بأنه: «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها

لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز».[32]

ويقصد بالملاحظة هنا هو علاقة المشابهة بين المشبه والمشبه به، فمثلا إذا قلنا: «رأيت أسدا» قاصدا رجل يشبه الأسد في البسالة وهذا ما يضفي إلى المعنى المرسخ، معنى آخر إضافي.

فالجرجاني يحبذ تعدد المعنى، وفي ذلك يقول:« إن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنا، الخبر الذي يتصور بالصور الكثيرة».[33]

نلخص إلى أن "عبد القاهر الجرجاني" قد سلط الضوء على كثير من قضايا البلاغة التي من مكوناتها الأساسية اللفظ والمعنى، فبلاغة الكلمة هي جودة معناها وجزالة لفظه، وفصاحة بيانها.

هذا ولا يمكن أن نتحدث عن مسألة اللفظ والمعنى إلا وجب حضور "الغزالي" (ت 505ه)، إذ تجلى اهتمامه باللغة في حرصه على استنباط الأحكام من القرآن الكريم، يميز "الغزالي" بين اللفظ والمعنى، ويتضح ذلك في قوله: «والموجود في الأعيان والأذهان لا يختلف بالبلاد والأمم، بخلاف الألفاظ والكتابة، فإنهما دالتان بالوضع والاصطلاح».[34]

يشير "الغزالي" أعلاه إلى اختلاف اللغات الذي يؤدي بالضرورة إلى اختلاف الألفاظ والكتابة بين الأمم، لكن المعاني تبقى واحدة في كل اللغات، لأن الموجود واحد والكون واحد سواء على مستوى الطبيعة، أو العلاقات الاجتماعية الأسرية وهكذا، وقد أقام "الغزالي" تقسيما للألفاظ باعتبار نسبتها إلى المعاني وحدد أربعة أصناف يقول: «اعلم أن الألفاظ من المعاني على أربعة منازل: المشتركة والمتواطئة والمترادفة والمتزايلة».[35]

ينص "الغزالي" هنا على أنّ علاقة اللفظ بالمعنى قد تأخذ أشكالا عدة، فالمشتركة؛ أي المشترك اللفظي وهو أن يكون للّفظ الواحد عدّة معاني، والمتواطئة وهي عكس المشتركة؛ أي أن يكون للمعنى الواحد عدّة ألفاظ، والترادف معروف وهو أن يشترك اللفظين أو أكثر في معنى واحد، أما المتزايلة فهي الألفاظ المتنافرة التي ليس بينها اشتراك لا في المعنى ولا في اللفظ.

ويذهب "الغزالي" بعيدا ليشرح كيفية حدوث العملية الكلامية الدلالية، وفي ذلك توضيح لصفة العلاقة بين اللفظ والمعنى، كما لا يفوته الحديث عن الكتابة التي تعتبر وسيلة تبليغ، وفي هذا كلّه يورد قائلا: «اعلم أنّ المراتب فيما نقصده أربع

واللفظ في الرتبة الثالثة، فإنّ للشيء وجودا في الأعيان ثمّ في الأذهان ثمّ في الألفاظ ثمّ في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في نفس، والذي في النفس هو مثال للموجود في الأعيان». [36]

من خلال هذا القول نلحظ مدى دقة التحليل الذي يحرص عليه "الغزالي"، إذ يضع كل واحد من العناصر العملية التبليغية في موضعه، فالمرتبة الأولى للنظر الذي ينقل الصورة الخارجية إلى الذهن ثم يوظف في الألفاظ ثم قد يكتب، فالكتابة تصبح "إشارة لإشارة".

حرص "الغزالي" على هذا التحليل الدقيق للفظ والمعنى ما هو إلا نتيجة طبيعية لما كان يسعى إليه، فاستقراء واستنباط أحكام القرآن الكريم تحتاج إلى نظرة عميقة وتأويل أعمق.

نجد "الآمدي" (551ه-631ه) هو الآخر تناول قضايا لغوية أوسع من أن تضمها هذه الدراسة المتواضعة، لكنني حاولت أن أرصد النقاط الجوهرية المتعلقة بمسألة اللفظ والمعنى، هذه النقاط التي بحثها "الآمدي" بموضوعية تحسب له.

ومما أورده في هذا الباب، هو تفضيله للفظ الحقيقي وفي هذا يقول: «فكلّ ما دنا من المعاني من الحقائق كان أولى بالنفس، وأجلى في السّمع، وأولى بالاستجادة، وأن يصور الشيء أو يتحدث عنه، فهذا كله إنما حسن هذا الحسن، وقبلته النفوس لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ما هو، مع حسن عبارته، وبراعة نسبه، وجودة تلخيصه، ومتخيّر ألفاظه». [37]

"الآمدي" في هذا النّص يدعو إلى اللفظ الحقيقي المعجمي، لكن دون أن يقلّل من قيمته، بل يجب أن يكون ذا نسج صوتي حسن، وسبك محكم، يناسب معناه.

ومن بين المسائل اللغوية التي أسهب "الآمدي" القول فيها، مسألة الحقيقة والمجاز في اللغة، وفيما يتعلق بماهية الحقيقة يقول "الآمدي": «أمّا الحقيقة فهي في اللغة مأخوذة من الحق، والحق هو الثابت اللازم، وهو نقيض الباطل ومنه يقال حق الشيء حقه، ويقال حقيقة الشيء أي ذاته الثابتة اللازمة ومنه قوله تعالى: «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» أي وجبت، وكذلك قوله تعالى: «حَقِيق عَلَي أَن لا أَقُول» أي واجب عليّ». [38]

فالحقيقة بهذا هي ما أقر به في الاستعمال الحقيقي المعجمي الذي تواضع عليه أفراد معينين ثم شاع في الاستعمال اللغوي، فاللفظ الحقيقي بهذا هو النواة المركزية التي يتبادر الذهن إليها بمجرد سماعه، وفيما يخص المجاز، يورد "الآمدي" قائلا:

«وأمّا المجاز فمأخوذ في اللغة من الجواز، وهو الانتقال من حال إلى حال ومنه يقال جاز فلان من جهة إلى جهة كذا». [39]

نرى من خلال هذا القول أن المجاز هو الخروج من حالة إلى حالة أخرى؛ أي الانتقال من دلالة لفظ الحقيقي إلى دلالة مجازية، وفي هذا أفرغ اللفظ من دلالته المعجمية وأعيد شحنه بدلالة جديدة، وفي ذلك إحياء للغة وتعدد للمعنى الواحد.

ومن بين الأمثلة التي اصطفاها "الآمدي"، فيما يخص الاستعارة نذكر ما يلي: «وفي بيت أبي تمام:

لا تلمني على البكاء فإني نضو شجو ما لمت فيه البكاء

مجال لمحاورة طويلة حول بعد الاستعارة، فالمجاز لا يتسع لأن نلوم البكاء كما نلوم العين ولا لأن نلوم انحدار الدمع، ولا تنتهي الاستعارة إلى هذا الموضع، وإذا استجزنا أن نلوم البكاء فينبغي أن نلوم أيضا: الضرب والقتل والقيام وسائر أفعال الفاعلين». [40]

فهو ها هنا يدعو إلى عدم الإفراط في البعد عن الحقيقة، حتى لا يختل المعنى، نلخص إلى أن "الآمدي" قد كان موضوعيا في طرحه وتحليله للمسائل اللغوية.

في حين "ابن خلدون" (ت 808ه)، هذا الرجل الباحث الغائص في عمق التاريخ، قد كان له صدى في البحث اللغوي، ومن جملة ما قدمه في هذا الصدد، نجد، ذكره لكيفية حدوث العملية الدلالية التبليغية التي ولا شك جوهرها، اللفظ والمعنى، يقول: «واعلم بأنّ الخط بيان عن القول والكلام، كما أنّ القول والكلام بيان عمّا في النفس والضمير من المعاني، فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة». [41]

"ابن خلدون" في هذا النص يتقاطع مع "الغزالي"، غير أنّ الإضافة ها هنا تكمن في دعوة ابن خلدون لأن تكون الدلالة؛ أي المقصود واضحا، ويرى "ابن خلدون" أنّ اللفظ والمعنى طرف واحد، وفي هذا يقول: «كما أنّ القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني». [42]

نلحظ أنّ الدراسة اللغوية عند العلماء العرب القدامى ومنهم "ابن خلدون" كانت ذات قيمة علمية ملحوظة، ترتكز على أسس مدروسة وتطبيقات منطقية مقبولة.

لنصل في الأخير وليس آخرا إلى رأي "الشريف الجرجاني" (ت 816ه) في مسألة اللفظ والمعنى من خلال تصنيفه لأقسام الدلالة، وكذا تعريفه لها، هذا الأخير الذي قال فيه: «الدلالة هي كون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول». [43]

من هذا التعريف للدلالة يتضح أن للمدلول الذي هو الصورة الذهنية (الدلالة غير اللفظية) دال (دلالة لفظية). وفي هذا إشارة من "الشريف الجرجاني" إلى علم آخر وهو ما يعرف بعلم السيمياء أو الرموز (Sémiologie) وذلك عندما نصّ على أنّ (الدلالة هي كون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر).

هذه الدراسة وإن لم تكن مفصلة مبوبة كما هي عليه اليوم في ميدان علم الدلالة (Sémantique) إلا أنّها كانت من بين منطلقات الدرس الدلالي الحديث، الأمر الذي جعل الباحثين المحدثين يقرون بجهود "الشريف الجرجاني" وبعمق تحليله، وحسن تصنيفه لأقسام الدلالة.

خـاتمـــة:

نلخص إلى أنّ مسألة اللفظ والمعنى، شكلت محور اهتمام الدارسين، باعتبارها تدخل في مسائل جوهرية، يتحدد من خلالها الدلالة التي هي مقصد المتكلم، ومراده من خلال إيراد اللفظ، فإذا ذهبنا مثلا إلى علماء أصول الفقه نجد الفقيه يركز على المعنى؛ لأنه يمثل الركن الأساس في استنباط الأحكام الفقهية، أما في البلاغة فالمعنى هو المراد والمبحوث عنه، إذ تشكل الصور البيانية إيحائية تحتاج إلى ربط الدال بمدلوله.

وعليه نجد أنّ علاقة اللفظ بالمعنى لا تقبل ثباتا أو اصطلاحية، أو أن نؤطرها بمؤطر، أو نجعل لها قاعدة يقرّ بها جميع الدارسين مهما اختلفت تخصصاتهم، فهي تبقى علاقة عرفية اعتباطية.

من هنا نجد أنّ جهود العرب القدامى ومنهم (الشافعي، سيبويه، ابن قتيبة، الجاحظ، الفارابي، ابن جني، ابن سينا، عبد القاهر الجرجاني، الغزالي، الآمدي، ابن خلدون، الشريف الجرجاني)، قد قدّموا تحليلات دقيقة واستنتاجات محكمة فيما يخص العلاقة بين اللفظ والمعنى، بالرغم من أنّ كل واحد منهم قد عالجها وفقا للحقل المعرفي الذي ينتمي إليه سواء أكان حقلا دينيا، أو منطقيا، أو فلسفيا، أو تاريخيا، فإنهم تقاطعوا في أمر واحد أنّ اللفظ هو المعبر عن المعنى سواء أكان لفظا حقيقيا معجميا أو مشتركا أو متواطئا أو مجازيا فإنّه يخفي في ثناياه صورة ذهنية تحتكم في ذهن قائله.

هوامش البحث:

1-عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة: دراسة نحوية للفظ والمعنى، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، د ط، د ت. ص: 11.

-2الشافعي (محمّد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر، دار النشر أنجاد، د ت. ص: 52.

3-فايز الداية، علم الدلالة العربي: النظرية والتطبيق: دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط2، 1996م. ص: 33.

4ا-لسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ج1، 1987م. ص: 400.

5-محمّد الصغير بناني، النظريات اللسانية البلاغية والأدبية عند الجاحظ: من خلال "البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1983م. ص: 241.

6-عبد الجليل منقور، علم الدلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي -دراسة-، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2001م. ص: 121.

7-المرجع نفسه. ص ن.

8-الجاحظ (عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ج1، ط1، 1988م ص: 106.

9 -عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 122.

10-ابن قتيبة (أبو محمّد عبد الله بن مسلم)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف بمصر، القاهرة، د ط، 1966م. ص: 64-69.

11 -فايز الداية، علم الدلالة العربي. ص: 39-40.

12-الفرابي (أبو نصر محمّد بن محمّد بن طرخان)، إحصاء العلوم، تحقيق وتعليق وتقديم: د/ عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1949م. ص: 159.

13-الفرابي، جوامع الشعر، تحقيق: سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (1391ه-1971م). ص: 171.

14-عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 129.

15-المرجع نفسه. ص ن.

16-سورة مريم، الآية: 83.

17-عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 130.

18-فايز الداية، علم الدلالة العربي. ص: 50.

19-السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ص: 356.

20-سورة الأنبياء، الآية: 75.

21-السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ص: 356-357.

22-عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 139.

23-المرجع نفسه. ص: 140.

24-ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله)، العبارة، تحقيق: محمود الخضيري، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، (1390ه-1970م). ص: 4.

25-ابن سينا، النجاة، تحقيق: محي الدين الكردي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1938م. ص: 90.

26 -عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 143.

27-المرجع نفسه .ص ن.

28-المرجع نفسه. ص: 144.

29-المرجع نفسه. ص: 147-148.

30-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، موفم للنشر، الجزائر، 1991م. ص: 68.

31-أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار طلاس، ط1، 1986م. ص: 71.

32-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمّد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2003م. ص: 260.

33-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص: 460.

34-الغزالي (محمّد بن محمّد أبو حامد)، معيار العلم، تحقيق: د/ سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1969م. ص: 75-76.

35 -عبد الجليل منقور، علم الدلالة. ص: 33.

36-الغزالي، معيار العلم. ص: 46-47.

37-الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر)، الموازنة في شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1965م. ص: 157.

38-الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ج1، ط1، 1981م. ص: 26.

-39المصدر نفسه. ص: 28.

40-الآمدي، الموازنة في شعر أبي تمام والبحتري. ص: 551.

41-ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، الدار التونسية، أبريل، 1984م. ص: 509.

42-المصدر نفسه. ص: 520.

43-الجرجاني (السيد الشريف)، التعريفات، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (1357ه-1938م). ص: 215.